الإسلام...دين المستقبل

الدكتور عارف الشيخ

نشر في كتاب

البعد الرسالي لمجلس التعاون الخليجي

"بلاد الجزيرة العربية"

(سلسلة مشروعات ثقافية)

إعداد إدارة البحوث والدراسات

وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الدوحة، 2002م

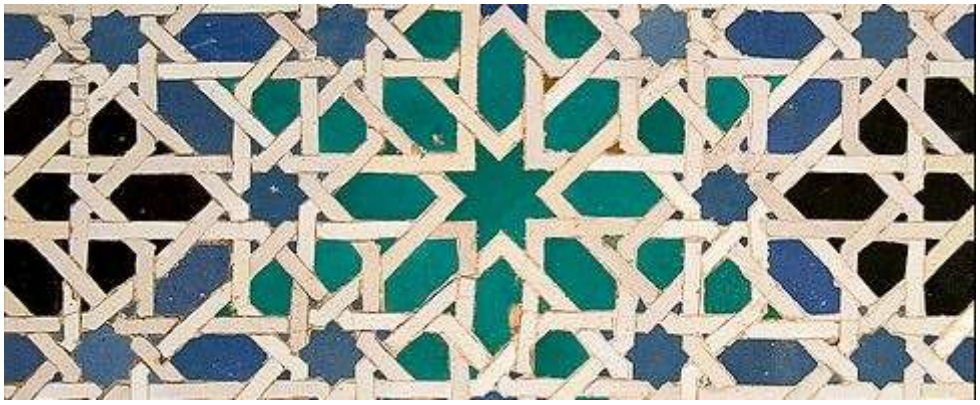

أعيد نشره إلكترونيا في رمضان 1439 / مايو 2018

الإسلام.. دين المستقبل

الدكتور عارف الشيخ(*)

ليس من قبيل المصـــادفة أن تتجه أنظار العالم إلى الجزيرة العربية، وإنما لعلمهم بأهمية الدور الذي يمكن أن تضـــطلع به.. فهي موطن أقدس مقدســـات العالم، ومهبط الوحي الخاتم، وفيها تكمن أغنى مناطق العالم من حيث الطاقة الروحية المحركة والثروة البترولية التي من أجلها تكالبت علينا الأمم اليوم.

إن الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد:

فإن الحديث عن رسالة الإسلام ومستقبل أمة الإسلام يطول ويطول جداً، لأن البداية كانت شائكة والنهاية كذلك.

لكن المتأمل في بداية الرسالة المحمدية يجد أنه لا يصعب على الله شيء، وكما انتصر الإسلام في البداية، ينتصر في النهاية، إن شاء الله.

انظر كيف خلق الله الخلق أمة واحدة، ثم بعث إليهم أنبياء ورسلاً ليبشروهم وينذروهم، فمنهم من آمن ومنهم من كفر، وقد لقي كل منهما جزاءه على مرأى ومسمع الآخرين ، فذهب المطيع مثالاً يحتذى به، وذهب المخالف عبرة لأولي الأبصار.

هذه هي سنة الله في كونه، فترى الخير والشر يتصارعان، وفي النهاية البقاء للخير، وإننا اليوم إذا كنا نرى أن المسلمين يمرون بمرحلة حرجة فينبغي أن لا يثني ذلك من عزائمنا، لأن ما نرى من انتكاسات وهزائم ليس الإسلام سبباً فيها، بل

(*) باحث وشاعر.. (دولة الإمارات العربية المتحدة).

نحن المسلمين.

إذن الإسلام هو الإسلام، ولو عاد المسلمون إلى سيرتهم الأولى لعادت إليهم انتصاراتهم، وعادوا قادة العالم وسادته كما كانوا.

وها نحن سوف نستعرض في هذا البحث الرؤية المستقبلية للاضطلاع بالدور الرسالي من خلال العناوين التالية:

الناس أمة واحدة؛ الناس قبل الإسلام؛ بزوغ فجر الرسالة المحمدية؛ ما دعا إليه الإسلام؛ أسلوب الدعوة في الإسلام؛ الإسلام دين جاذب؛ سر جاذبية الإسلام؛ هل بقي الإسلام قويا؟؛ لماذا تأخر المسلمون؟؛ الإسلام يدعو إلى العلم؛ في الإسلام قدوة حسنة؛ كيف ننهض ثانية؟.

نفهم من هذه العناوين أن الإنسان مؤهل لتقبل الخير، وإذا كانت بعض صفحات الحياة مغبرة من حوله فإن بعض صفحاتها الأخرى مشرقة، والإنسان نفسه يلعب الدورين معاً، والله تعالى يقول في كتابه: ﴿ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴾ (البلد:8-10).

فلنستلهم إذن من كبوة الحاضر انطلاقة الماضي، ولنستشعر من انهزام المسلمين عزة الإسلام، ولنعلم علم اليقين أن الإسلام هو دين الله الخالد، والجزيرة العربية هي المهد الأول لهذه الرسالة.

فالله المستعان وعليه التكلان.

الناس أمة واحدة:

عندما نقرأ الآية الكريمة: ﴿ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً

﴿فَٱخۡتَلَفُواْ﴾ (يونس:19)، لا نجدها مختلفة كثيراً في غايتها عن الآية الكريمة: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾ (الذاريات:56).

فالآية الأولى تعيد إلى الأذهان بأن الوحدة هي أصل الإنسانية، الذي خلق الله الناس عليه ، وأراد منهم أن يبقوا عليه في ظل تعايش سلمي.

والآية الثانية مفهومها أننا لم نخلق عبثاً، بل خلقنا لعمارة الكون، وعمارة الكون لن تكون بالخلافات والمشاحنات بل بالحب، ولن نتحاب إلا إذا التففنا حول معبود واحد بحق.

ثم جعل لتلك العبادة أو لتلك الطاعة رموزاً وشعائر تجمعنا معاً مثل الكعبة، الصلاة، الصيام، الحج، القرآن، وهكذا.

إذن هذه الرموز والشعائر وإن اختلفت أساليب التعامل معها من فترة إلى فترة إلا أنها كلها كانت تدعو الناس، إلى الخضوع لرب واحد، وهذا هو التوحيد.

وفكرة التوحيد ليست مجسدة في العبادات فحسب، بل هي مطلب يتمشى مع الطبيعة الكونية التي خلق الله الناس عليها.

فمن الناحية النظرية، لو تأملت في الكون لوجدت أن هناك ظواهر متعددة مثل السماء والهواء والمطر والنور وغيرها، وكل منها في نفسها توحي للإنسان بأنها قوية، مما جعل الكثيرين يعبدونها ، لأنهم كانوا يرون فيها مظاهر القوة التي تستحق كل واحدة منها أن تكون آلهة تعبد.

لكن رغم ذلك فإن كثرة عدد الآلهة أدت بالناس أن يفكروا في تأليه الأقوى منها، إذ لا يمكن أن تكون كلها آلهة تتصارع، أو يتصارع الناس عليها.

من هنا، أي بعد نظرية التعدد، ظهرت نظرية "الثنائية"، بمعنى أن القوة

انحصـرت في الشـيء وضـده، فإذا وجد النور وجد الظلام، وإذا وجد الخير وجد الشـر وهكذا، لكن رغم ذلك فإن العقل البشـري لم يقتنع تماماً بهذه الثنائية، إذ لا بد أن يكون خلفهما خالق واحد ومُوجد واحد.

إذن المطلوب هو الألوهية المطلقة، وهي هذه التي أرادها الله لعباده منذ أن خلقهم، لولا أنهم اختلفوا على أنبيائهم وكذبوهم.

ومن الملاحظ أن شبه الجزيرة العربية احتضنت فكرة التوحيد منذ نشأتها الأولى، أمّا الوثنية واليهودية والنصرانية فإنها كانت طارئة عليها.

الناس قبل الإسلام:

يقول المستشرق الهولندي "رينهارت دوزي": «إنه كان يوجد على عهد محمد في بلاد العرب ثلاث ديانات: الموسوية والعيسوية والوثنية، وفي هذه الأحوال الحالكة ولد محمد بن عبد الله في عام 570، ومن هذا نرى أن العالم الانساني كان بحاجة إلى حادث جلل يزعج الناس عما كانوا فيه،ويضطرهم إلى النظر والتفكير في أمر الخروج من المأزق الذي تورطوا به» [1].

ويقول "وليم موير" في كتابه "حياة محمد": «في القرنين الخامس والسادس كان العالم المتمدين على شفا السقوط في هاوية الفوضى، لأن العقائد التي تعين على إقامة الحضارة كانت قد انهارت، ولم يك ثمة ما يعتد به».

وكان يبدو وقتئذ أن المدنية الكبرى التي تكلف بناؤها جهود أربـعة آلاف سنة مشرفة على التفكك، وأن البشرية توشك أن ترجع ثانية إلى ما كانت عليه من الهمجية، إذ كانت القبائل تتحارب، فلا قانون ولا نظام، أما النظم التي خلفتها

(1) راجع كتابه: تاريخ الدول الإسلامية في الأندلس والمغرب.

الكنسية فكانت تعمل على التفرقة والانهيار[1].

ويبدو من خلال قراءتنا للتاريخ أن الوثنية الطارئة على شبه الجزيرة العربية كانت مرتبطة بالوضع القبلي آنذاك.

لذلك فإن بعض الأصنام كانت معروفة بأسمائها كرموز، وكانت خاصة لقبائل معينة[2].

وكان بعض سادات القبائل يبدل الآلهة إذا أراد، أو يدعو إلى عبادتها، بالإضافة إلى الصابئة الذين عبدوا الكواكب و النجوم.

أما اليهودية والنصرانية فلم تأخذا انتشارهما كثيراً كدين وكمعتقد، وهما وإن وجدتا في اليمن والحجاز إلا أن اليهودية انشغلت بالاقتصاد والزراعة، وهي بدورها كانت تعادي النصرانية.

وأما النصرانية فقد ظهرت في نجران نتيجة بسط الرومان و الحبشة نفوذهما في شبه الجزيرة العربية.

أقول: إن الوثنية كانت تتمتع بنفوذ أكثر حيث عمت الجزيرة العربية، ولعل السبب أن العرب كانوا يحبون أن يستقلوا بآلهتهم، ويتميزوا بدينهم، وربما لأنهم كانوا إلى الحنيفية أقرب لولا إدخال عبادة الأوثان عليهم.

---

(1) راجع الكتاب بترجمة مصطفى فهمى وعبد الحميد السحار.

(2) من هذه الأصنام اللات، والعزى، ومناة، وهبل، ويغوث، ونسر، وسواع، وود، وإساف، ونائلة، وسعد، ومناف، وذو الخلصة، والأقيعر، ونهم، وعائم، وسعيد، ومحرق، وعوض، وعوف، وذريح، وقيس، وأدال؛ راجع كتاب الأصنام لابن الكلبي.

على كل حال فإن تمسكهم بعبادة الأوثان كان يعني أن فيهم حب التدين، لكن مع الأسف انحرفوا من عبادة الإله الواحد إلى عبادة عدد من الآلهة، وكانوا يعتقدون أن ذلك يقربهم إلى الله .

أما الذين بقوا على حنيفيتهم فإنهم كانوا ضد عبادة الأوثان، وكانوا يعادون أصنامهم حتى أن زيد بن عمرو بن نفيل، وهو من حكماء العرب، كان يقول:

فلا عُزّى أدين ولا ابنتيها ولا صنمي بني عمرو أزور

أرباً واحداً أم ألف ربّ أدين إذا تقسمت الأمور

وزيد بن عمرو هذا أثنى عليه الرسول ﷺ حيث قال عنه : «...**إِنَّهُ يُبْعَثُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أُمَّةً وَاحِدَةً**»[1].

بزوغ فجر الرسالة المحمدية:

كان بزوغ فجر الرسالة المحمدية في وسط هذا المجتمع الذي يعج بالوثنية من جهة، ويتشبث بأذيال اليهودية والنصرانية من جهة أخرى، بمثابة قنبلة مدوية ألقيت لتحدث انقلاباً تاريخياً عظيماً.

فالوضع الاجتماعي والديني والسياسي لا يحتمل أكثر، والحياة فوضى، وربما للناس عذر أيضاً حيث إنهم بعيدو عهد بالرسالات السماوية، إلا أن ذلك لا يعني أن تستمر عبادة الأوثان وتنتشر اليهودية والنصرانية في أرض كانت تعتنق الحنيفية التي تدعو إلى عبادة الواحد الأحد.

ومما تجدر الإشارة إليه أن الإسلام عندما ولد لم يولد لينتقص من الأديان

(1) أخرجه أحمد.

السماوية الأخرى ، كلا فهو امتداد للرسالات السابقة، ومكملة لها.

ولو أردت أن ترى القواسم المشتركة بينها فانظر إلى الوصايا العشر التي أتت بها الشريعة اليهودية وهي :

1- لا تجعل لك إلهاً غيري.
2- لا تحلف باسم الرب إلهك...
3- اذكر يوم السبت لتقدسه.
4- اكرم أباك و أمك.
5- لا تقتل.
6- لا تزن.
7- لا تسرق.
8- لا تشهد زوراً.
9- لا تشته بيت قريبك.
10- لا تشته امرأة قريبك.

ثم انظر في الشريعة العيسوية لتجد أنها تدعو إلى:

- الزهد المطلق والتخلي عن الدنيا.
- عدم مقابلة الشر بالشر.
- التسامح والحب.
- الصلة المباشرة بين الله والناس[1].

قارن بين تلك الوصايا وبين ما ورد في القرآن الكريم جملة تجد أنها كلها تدعو

(1) راجع: مقارنة الأديان للدكتور أحمد شلبي.

إلى الخير، وتهذيب الطباع، والكف عن الرذيلة والظلم وسوء الأخلاق.

وإن قلت: إن الإسلام اختلف عما قبله كثيراً، أقول: إن العصور اختلفت، والله سبحانه وتعالى كان يبعث النبيين واحداً تلو الآخر إلى أممهم، ويحملهم من الرسالات ما تطيقها أممهم .

وعندما بلغت الإنسانية مبلغاً من الكمال والاعتدال أرسل إليها أكمل الرسل بأبلغ الرسالات ، وجعله خاتماً للأنبياء، ورسالته خاتمة للرسالات، لعلمه تعالى أن الأمم مهيأة الآن لتلقي تعاليم السماء جملة وتفصيلاً، فما كان إلا أن قال الله تعالى لرسوله محمد ﷺ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ﴾(سبأ:28).

إذن لا تستغرب إذا وجدت الرسول ﷺ يقول : «**لا يَجْتَمِعُ دِينَانِ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ**»[1]، لماذا ؟ لأن الأديان السابقة انصهرت في دين الإسلام بحكم أنه خاتم تلك الرسالات.

نعم وجدت اليهودية والنصرانية والوثنية ، إلا أن قبل ذلك كله كانت الحنيفية الإبراهيمية ، وقد قال الله تعالى على لسان نبيه ﷺ: ﴿قُلۡ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ دِينٗا قِيَمٗا مِّلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٦١ قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ (الأنعام:161-163).

انظر كيف قال عن النبوة الأولى: إن المبعوث بها كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين.

(1) أخرجه مالك.

وقال عن النبوة الخاتمة: إن الدين عند الله هو الإسلام، وقال: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ (آل عمران:85).

إذن لا تعارض منذ الأزل بين الأديان السماوية التي جاءت كلها لتؤكد أن التوحيد هو دين الله الخالص.

ومن الناحية النظرية نستطيع القول: إن الجزء يندرج تحت الكل، فالإنسان والحيوان والنبات والحجر ربما تقسم إلى حياة وجماد، لكن في النهاية يطلق عليهما لفظ الموجود.

وهذا الموجود لابد أن يكون له من واجد فاض منه كل الموجودات .

هكذا يقول الفلاسفة مثل أفلاطون.. ويقول أرسطو: إن كل ما في الكون يرجع إلى السبب الأول الذي حرك كل شيء دون أن يتحرك القديم الأزلي واجب الوجود لذاته.

أقول والعلم التجريبي أو التطبيقي الذي لا يؤمن بالشيء حتى يُرى يؤكد لنا هذه الوحدة المطلقة، وكان يقول: إن عناصر المادة أربعة هي:

الهواء، والماء، والنار، والتراب، وهي تشكل الطبيعة.

ثم قال: إن الطبيعة ليست عناصر مجردة بل مؤلفة من عناصر أخرى مثل الأكسجين والهيدروجين والأوزون، ثم بدأت العناصر تتوسع أكثر وأكثر، وثبت للعلم أن كل عنصر صار مستقلاً عن الآخر.

ومن هنا قال العلماء: إن العناصر ترد إلى قوتين متغايرتين:

مادة منفعلة، وطاقة فاعلة، وكأنهم عادوا بذلك إلى الاعتقاد بالثنائية القديمة، وعندئذ اتفقوا على اسم موحد هو المادة أو الطاقة.

وبعد ذلك ومع التفجر العلمي قالوا: لا يوجد شيء اسمه مادة أو طاقة، وإنما إشعاع، والإشعاع أحد عناصر الضوء، فالضوء هو الأصل[1].

وهكذا ينتهي العلم الحديث إلى ما انتهت إليه النظريات القديمة، ليلتقيا في النهاية عند ما أثبتته الأديان السماوية.

ففي كتاب العهد القديم ورد ما نصه: في البدء كان النور.

وفي القرآن الكريم: ﴿ ۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ (النور:35).

إذن الله الواحد الأحد خلقنا وأوجدنا، والله الواحد الأحد يجب أن يعبد، إذ لا معبود بحق سواه، قال تعالى على لسان نبيه محمد ﷺ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾(الإخلاص:1-4).

ما دعا إليه الإسلام:

لو عدنا إلى كتب السير لوجدنا جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه يلخص لنا ما دعا إليه الإسلام في كلمة ارتجلها أمام النجاشي ملك الحبشة عندما هاجروا إليه.. يقول جعفر:

«أيها الملك كنا قوماً أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته، وعفافه، فدعانا إلى الله نوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء.

(1) راجع الأمة الإنسانية لأحمد حسين.

نعم.. ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنات، وأمرنا أن نعبد الله وحده، لا نشرك به شيئاً، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام، ونحن صدقناه، وآمنا به، واتبعناه على ما جاء به من الله، فعبدنا الله وحده، فلا نشرك به شيئاً، وحرمنا ما حرم علينا، وحللنا ما أحل لنا، فعدا علينا قومنا، فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث».

سمع النجاشي كل ذلك في هدوء ثم قال : هل معك ما جاء به صاحبكم عن الله من شيء ؟.

قال جعفر: نعم.

قال النجاشي فاقرأه علي، فقرأ جعفر صدراً من سورة مريم فبكى النجاشي حتى اخضلت لحيته، وبكى أساقفته حتى اخضلوا مصاحفهم.

وهناك موقف آخر شبيه بذلك الموقف، حيث وقف صحابي يقول لرستم قائد جيش الفرس إذ ذاك: إنا لم نأتكم لطلب الدنيا ، وإنما طلبنا وهمنا الآخرة .

فقال له رستم: ما دين الإسلام ؟ قال: أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله.

قال: وأي شيء أيضاً؟

قال: إخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة الله.. والناس بنو آدم وحواء، إخوة لأب وأم.

قال: ما أحسن هذا ؟ ثم دعا رستم قومه فأنِفوا من ذلك، ثم طلبوا من سعد بن أبي وقاص رجلاً آخر يكلمهم، فأرسل ربعي بن عامر، فلما وصل إلى رستم داس

بفرسه على النمارق والبسط والزينة والحرير، وامتنع أن ينزع سلاحه، وأخذ يمزق الوسائد والبسط، ثم ركز رمحه على البسط، ومما قال : «إنا قد بعثنا الله لنخرج من يشاء من عباده من ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام».

فأعجب بكلامه رستم وخلا بقومه، وقال لهم: هل رأيتم كلاما أعز وأوضح من هذا ؟ قال: معاذ الله أن نميل إلى دين هذا الكلب. ثم أرسل لهم المغيرة بن شعبة فجلس مع رستم على سريره فأنزلوه فقال: ما أرى قوماً أسفه أحلاماً منكم، إنا معشر العرب لا يستعبد بعضنا بعضاً، وإني رأيت أن بعضكم أرباب بعض، وأن هذا الأمر لا يستقيم فيكم[1].

أقول وكم من تفاوت بين ما كان عليه الإسلام في بداية انتشاره، وبين العصر الذي نعيشه نحن اليوم.

لقد كان أهله أعزة به، أقوياء بما أوتوا من نعمة الإيمان، رغم قلة عَددهم وعُددهم، أما اليوم فنحن أذلة رغم كثرة عددنا وعُددنا.

أسلوب الدعوة في الإسلام:

بنى الإسلام صرحه الشامخ على أسس متينة لا تقبل الطعن فيها ، فمن تلك الأسس آيات كريمة:

- ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ ﴾ (البقرة:256).
- ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ ﴾ (النحل:125).
- ﴿ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ ﴾ (النحل:125).

(1) راجع : الجواهر في تفسير القرآن الكريم للشيخ طنطاوي جوهري حول سورة الفاتحة.

- ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾ (آل عمران:159).
- ﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟﴾ (البقرة:190).
- ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ (الإسراء:70).
- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ (الحجرات:13).
- ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ﴾ (الممتحنة:8).
- ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (المنافقون:8).
- ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ (فاطر:28).
- ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ (الروم:47).
- ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ (الرعد:11).
- ﴿إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ (محمد:7).
- ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ (النساء:58).
- ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ (الحجرات:10).
- ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ (البقرة:143).

وأحاديث شريفة :

- «**مَنْ قَتَلَ رَجُلاً مِنْ أَهْلِ الذِّمَّةِ لَمْ يَجِدْ رِيحَ الْجَنَّةِ**» (أخرجه النسائي).

- وفي الحديث أيضاً أن الرسول ﷺ مَرَّتْ بِهِ جِنَازَةٌ فَقَامَ، فَقِيلَ لَهُ: إِنَّهَا جِنَازَةُ يَهُودِيٍّ، فَقَالَ: «**أَلَيْسَتْ نَفْسًا**» (أخرجه البخاري).
- وقال: «**هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ** قَالَهَا ثَلاثًا» (أخرجه مسلم).
- وقال: « **إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ أَنْ تُؤْتَى رُخَصُهُ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ تُؤْتَى مَعْصِيَتُهُ**» (أخرجه أحمد).
- وقال: «**روِّحوا قلوبكم ساعة فساعة**» (أخرجه أبو داود).
- وقال: «**خير الأمور أوساطها**» (أخرجه البيهقي).
- وقال: « **أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا، وَخِيَارُكُمْ خِيَارُكُمْ لِنِسَائِهِمْ خُلُقًا**» (أخرجه الترمذي وقال: حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ).
- وقال: «**مَنْ لا يَرْحَمِ النَّاسَ لا يَرْحَمْهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ**» (أخرجه مسلم).
- وقال: «**لِكُلِّ غَادِرٍ لِوَاءٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُقَالُ هَذِهِ غَدْرَةُ فُلانٍ**» (أخرجه مسلم).
- وقال: «**من مشى مع ظالم ليعينه وهو يعلم أنه ظالم فقد خرج من الإسلام**» (أخرجه أحمد والطبراني).
- وقال: « **مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى**» (أخرجه مسلم).
- وقال: « **إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ، وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذِّبْحَ، وَلْيُحِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ فَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ**»

(أخرجه مسلم).

- وقال: «**ما ترك قوم الجهاد إلا عمهم الله بالعذاب**» (أخرجه الطبراني).

من كتبه إلى الملوك والرؤساء:

من محمد رسول الله إلى صاحب الروم:

إني أدعوك إلى الإسلام، فإن أسلمت فلك ما للمسلمين وعليك ما عليهم، فإن لم تدخل في الإسلام فأعط الجزية، فإن الله تعالى يقول: قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله، ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب، حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون، وإلا فلا تحل بين الفلاحين وبين الإسلام أن يدخلوا فيه أو يعطوا الجزية.

فأجابه إمبراطور الروم وقال:

إلى محمد رسول الله الذي بشر به عيسى، من قيصر ملك الروم، إنه جاءني كتابك مع رسولك وإني أشهد أنك رسول الله، نجدك عندنا في الإنجيل، بشرنا بك عيسى بن مريم، وإني دعوت الروم إلى أن يؤمنوا بك فأبوا، ولو أطاعوني لكان خيراً لهم، ولوددت أني عندك فأخدمك وأغسل قدميك[1].

ومن وصاياه ﷺ إلى قواده وجنوده:

« **انْطَلِقُوا بِاسْمِ اللَّهِ، وَبِاللَّهِ، وَعَلَى مِلَّةِ رَسُولِ اللَّهِ، وَلا تَقْتُلُوا شَيْخًا فَانِيًا، وَلا طِفْلاً وَلا صَغِيرًا، وَلا امْرَأَةً، وَلا تَغُلُّوا، وَضُمُّوا غَنَائِمَكُمْ، وَأَصْلِحُوا وَأَحْسِنُوا**

(1) راجع : كتاب منهاج الصالحين، لعزالدين بليق .

إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ»[1].

– ومن وصايا أبي بكر في الحرب:

لا تخونوا، ولا تغلوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا طفلاً صغيراً، ولا شيخاً كبيراً، ولا امرأة، ولا نخلاً، ولا تحرقوه، ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تذبحوا شاة، ولا بقرة ولا بعيراً، إلا لمأكلة، وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له[2].

الإسلام دين جاذب:

من هنا نعلم أن الإسلام دين قوي وجاذب، والقرآن الكريم والسنة المطهرة يحفلان بالعديد من الآيات والأحاديث التي تدل على إنسانية دين الإسلام الذي أرسله الله إلى العالمين كافة.

كيف لا وقد جاء ليكون وسطا بين الأديان جميعاً، فلا هو أقر كل الشرائع السابقة، ولا هو ألغى كل الشرائع السابقة، بل أخذ منها ما كان صالحاً، وأضاف إليها ما كان ناقصاً، ثم قال الله تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ (المائدة:4).

وما انتقل الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى إلا وخضعت له أرض الجزيرة العربية، بل بعض البلاد المجاورة أيضاً.

ثم قام الخلفاء الراشـدون من بعده، وأوصلوا رسالة الإسلام إلى خارج الجزيرة،

(1) أخرجه أبو داود؛ راجع : فقه السنة للسيد سابق.
(2) راجع : المرجع السابق.

حيث امتد الإسلام من المدينة المنورة إلى إسبانيا، وإلى قلب أفريقيا، والصين، والهند، وغيرها من أرجاء العالم.

ومما يجب أن نعلمه أن الإسلام لم ينتشر في أقطار الدنيا بقوة السيف، كما يقول أعداء الإسلام، بل لما يتمتع به من عدل وإنصاف ونشر للحرية، ولما كان يتمتع به رسول الإسلام ﷺ من قوة شخصية، وقدرة على الإقناع، وقد شهد له بذلك كل المنصفين.

هذا هو الدكتور " مايكل هارت "، وهو مفكر غربي، يقول:

«إن اختياري محمداً ليكون الأول في قائمة أهم رجال التاريخ ربما أدهش كثيراً من القراء إلى حد قد يثير بعض التساؤلات، ولكن في اعتقادي أن محمداً ﷺ كان الرجل الوحيد في التاريخ الذي نجح بشكل أسمى وأبرز في كلا المستويين، الديني والدنيوي.

لقد أسس محمد ﷺ أحد أعظم الأديان في العالم، وأصبح أحد الزعماء العالميين السياسيين العظام، ففي هذه الأيام وبعد مرور ثلاثة عشر قرناً تقريباً على وفاته لا يزال تأثيره قوياً عارماً»[1].

ويقول الباحث الإنجليزي "مونتجمري وات":

«كلما فكرنا في تاريخ محمد وتاريخ أوائل الإسلام تملكنا الذهول أمام عظمة مثل هذا العمل، ولاشـــك أن الظروف كانت مواتية لمحمد فأتاحت له فرصاً للنجاح لم تتحها لسوى القليل من الرجال، غير أن الرجل كان على مستوى الظروف تماماً فلو لم يكن نبياً، ورجل دولة وإدارة، ولو لم يضع ثقته بالله، ويقتنع بشكل ثابت بأن الله

(1) راجع كتابه : المائة الأوائل.

أرسله لما كتب فصلاً مهماً في تاريخ الإنسانية.

ولي أمل أن هذه الدراسة عن حياة محمد يمكنها أن تساعد على إثارة الاهتمام من جديد برجل هو أعظم رجال أبناء آدم»[1].

سرّ جاذبية الإسلام:

نستطيع القول: إن سر جاذبية الإسلام يكمن في أنه لم يبن على الإكراه ولا على الخداع ولا على الظلم، بل على العدل والإنصاف والرحمة والتسامح.

وها هو الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه يخرج من صلاة الفجر من المسجد ليجد على باب المسجد رجلاً طاعناً في السن يرتعد ويرتجف من البرد، فيسأله من أنت؟

فيقول: أنا فلان اليهودي، فيقول له عمر: وما الذي أتى بك ها هنا؟

فيرد اليهودي: الجوع والفقر والحاجة، فيأخذه عمر إلى بيت المال وهو يقول: «والله ما أنصفناك لو أكلنا شبابك، ثم ظلمنا شيخوختك»، وأمر بعد ذلك بأن يجرى له راتب شهري.

ويقول المفكر الفرنسي المسلم " روجيه جارودي ": «لا يمكن أن نفسر ظاهرة انتشار الإسلام بعوامل خارجية كالضعف البالغ أو الانحلال، الذي انتاب الإمبراطورية الرومانية الشرقية والساسانية والفيزيفون في إسبانيا، ولا يمكن تفسيرها بعوامل عسكرية صرفة».

ولكن الأسباب العميقة لذلك الانتشار أسباب داخلية تتصل بجوهر الإسلام

(1) راجع كتابه: محمد في المدينة.

وروحه، فعشية موت النبي وعلى مدى اثنتي عشرة سنة (من 633 إلى 645) تمت سيطرة العرب على فلسطين وسورية وما بين النهرين ومصر، ولم تقف في وجه الموجة الأولى إلا الحواجز الطبيعية كسلسلة جبال طوروس في آسيا الوسطى، وجبال شرق إيران، وصحارى ليبيا والنوبة في الغرب[1].

نعم وتدافعت الأمم على اعتناق دين الإسلام، ولغة القرآن، عندما وجدوا أن هذا الدين جاء ليحرر رقابهم من نير الاستعباد، ويفتح أمامهم باب الحريات على مصراعيه، أليس عمر بن الخطاب هو القائل: «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً»؟

ثم إن إلغاء نظام الطبقية جعل الناس يقتنعون بعظمة هذا الدين، فمتى كان الحاكم و المحكوم يتساوون أمام القضاء ؟ و لكن نبي الإسلام ﷺ أعلن ذلك منذ أول يوم من الدعوة حيث قال : « **وَايْمُ اللَّهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا**»[2].

وفي عرفات وأمام جموع الحجيج نادى عمر: أين القبطي المتظلم من ابن عمرو بن العاص والي مصر؟

فجاءه، وكان عمر قد أمر عمر بإحضار ابن عمرو بن العاص ووالده، ثم قال للقبطي: خذ درتي هذه واضرب بها ابن الأكرمين.

وبعد أن اقتص القبطي منه قال له عمر ضعها على صلعة عمرو بن العاص، لأن الابن لم يتجرأ عليك إلا بفضل منصب أبيه.

الله أكبر.. وهل من عدالة أكبر من هذه العدالة، ثم كيف لا تريد أن ينجذب

(1) راجع كتابه: ما يعد به الإسلام.
(2) أخرجه البخاري.

الناس إلى هذا الدين الذي يبني حكمه على الشورى لا الطبقية؟

وها هو أبو بكر الخليفة الأول للرسول ﷺ يقول في أول يوم من حكمه: إني قد وليت عليكم ولست بخير منكم، إن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني.. الضعيف فيكم قوي عندي حتى آخذ له الحق، إن شاء الله، والقوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ منه الحق إن شاء الله.

هذا المنطق لاشك أنه يجعل دين الإسلام أكثر جاذبية من أي دين، لأنه لا يفرق بين جنس وجنس، ولا جنسية وجنسية، ولا لون ولون، إلا بالتقوى، والأكرم عند الله لا بالمال ولا بالجاه بل بالتقوى.

والتقوى ليست ثياباً تلبس، بل سلوكاً وممارسة إنسانية مع الناس والحيوان والجماد ، وإن لم يكن كذلك فما الذي فضل بلالاً الحبشي وسلمان الفارسي على أبي لهب القرشي؟

وإلى ذلك أشار الشاعر:

عليك بتقوى الله فيما تريده ولا تترك التقوى اتكالاً على النسب

فقد رفع الإسلام سلمان فارس وقد وضع الكفر الشريف أبا لهب

هل بقي الإسلام قوياً؟

قلنا: إن الإسلام عندما انتشر وصارت الجزيرة وما حولها قوة واحدة متماسكة كالجسد الواحد، لم يكن ذلك بفضل التفوق العسكري، ولا التفوق الاقتصادي، ولا الزيادة السكانية، بل لأنه جمع الناس على عقيدة بالله الواحد والكتاب الواحد، والرسول ﷺ الواحد فكان أول ما فعله عندما أسس المجتمع المدني هو: بناء المسجد، والمؤاخاة بين المسلمين، وكتابة الوثيقة.. ولكل من هذه الأسس

مدلولاته الخاصة به.

فمن المعلوم أن الرسول ﷺ عندما قدم إلى المدينة وجد مجتمعاً مختلطاً من الأنصار والمهاجرين واليهود، وكان المجتمع شبيهاً بمجتمع اليوم، حيث لا مناص من الحياة مع هؤلاء أو مع غيرهم، فكان لا بد من أن يضع نظاماً للتعايش السلمي بحيث يضمن لكل منهم حقه في الحياة مع الاحتفاظ بالإسلام قوياً.

فبنى المسجد أولاً، والمسجد في ذلك الوقت يعني الجامعة، ووزارة الدفاع، والبرلمان، ومجلس الشورى، والنادي في يومنا هذا، وكانوا يلتقون فيه كل يوم خمس مرات ويقفون صفاً واحداً كأنهم بنيان مرصوص، وهو القائد الذي يؤمهم.

ثم آخى بين المهاجرين والأنصار، وبذلك أذاب الطبقية والتمييز بسبب اختلاف الأجناس والألوان، فصارت القاعدة التي تجمع الكل هي: الوحدة والتعاون والتضامن والمساواة والعدل .

ثم كتب الوثيقة التاريخية التي كانت بمثابة دستور يضمن حقوق المسلمين واليهود العائشين في المدينة.

يقول ابن هشام: «إن الرسول ﷺ كتب كتاباً بين المهاجرين والأنصار، وادع فيه اليهود وعاهدهم، وأقرهم على دينهم وأموالهم، وشرط لهم واشترط عليهم».

كان هذا الكتاب عبارة عن (14) مادة، تتضمن كل مادة جانباً من جوانب الحياة التي يجب على المسلمين واليهود أن يراعوها، وبذلك وضع النظام، وأرسى دعائم العدل في المجتمع[1].

ويقول الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي : تدل هذه الوثيقة على أحكام

(1) راجع السيرة النبوية للمؤلف.

مهمة منها أن:

1- الإسلام وحده القادر على تأليف وحدة المسلمين.

2- ضرورة إقرار مبدأ التكافل و التضامن في المجتمع.

3- ضرورة المساواة بين المسلم والمسلم، وبين الذكر والأنثى، بل إنصاف غير المسلم في الحقوق.

4- ضرورة الرجوع إلى شريعة الله في حل الخصومات وشؤون الحياة[1].

أقول: ويتضح من هذا أن الإسلام لم يكن مواد نظرية غيـــر قابلة للتطبيق، ولم يكن مواد صـــماء، بل روحاً و مادة، مما أوجد للمجتمع توازناً وتماســـكاً بين ما يعتقده وما يمارســه، وأوجد انســجاماً بين فئات المجتمع مما جعل كل فئاته تشــعر بالراحة من هذا الدين الجديد، كيف لا وقد عانت من التفكك والانهيار والطبقية والظلم كثيراً.

يقول المؤرخ الإيطالي "كايتاني": «إن معاقل المسيحية في الشرق قد تهاوت أمام المد الإسلامي بسبب تلك الجاذبية وسطوع مبادئه، وحينئذ ترك الشرق المسيح وارتمى في أحضان العرب، ولا عجب فقد منح الإسلام العبد رجاءً، والإنســـــانية إخاءً، ووهب الناس إدراكاً للحقائق الأساسية التي تقوم عليها الطبيعة البشرية»[2].

ويقول المفكر "برج": «ليس هناك من مجتمع غير المجتمع الإسلامي سجل له التاريخ من النجاح كما سجل للإسلام في توحيد الأجناس الإنسانية المختلفة مع التسوية بينها في المكانة والعمل، وتهيئة الفرص للنجاح في هذه الحياة».[2]

(1) راجع كتابه: فقه السيرة النبوية.

(2) راجع كتاب: حوليات الإسلام.

(2) راجع كتاب: الرسول في الدراسات الاستشراقية المنصفة، لمحمد شريف الشيباني.

إذن هذه هي الأسس التي قام عليها الإسلام، وكان سر عظمته في تمسك أهله بمبادئه، والسير على نهجه القويم .

وما أن تراجع المسلمون عن هذه المبادئ حتى تراجع تفوقهم أيضاً، فصاروا يسجلون أرقاماً تنازلية، رغم أنهم بقوا يظنون بأنهم مازالوا أقوياء، فصاروا يفاخرون الآخرين بعظام الآباء والأجداد في حين أن أعمالهم تكذب واقعهم، ما ذلك إلا لأنهم كانوا متوهمين وما زالوا.

لماذا تأخر المسلمون ؟

قبل أن نبحث عن أسباب تأخر المسلمين يجب أن نذكر أنفسنا بأسباب تقدمهم، فالإنجازات التي سجلها الإسلام عبر عصوره الذهبية لم تكن كأي ثقافة، وإنما كانت شريعة، لذلك فإنها ظلت حضارة باقية وستبقى حتى لو فني أهلها.

أما لو كانت مجرد ثقافة ذهنية فكان من الممكن أن تندرس كما تندرس أي ثقافة مع اندراس أهلها .

يقول الأستاذ عمر بهاء الدين الأميري، رحمه الله:

«أكثر الباحثين العرب خصص اصطلاح الثقافة لمفهوم الرقي في الجوانب الروحية والأدبية من دين وأخلاق وفلسفة ولغة وفنون ، وخصص اصطلاح المدنية لمفهوم الرقي في الجوانب المادية من علوم طبيعية وهندسية واختراع واكتشاف.. ومن الثقافة والمدنية تتكون الحضارة، وهي لها تعاريف عدة عند العلماء، وقد عرفها المعجم الوسيط بأنها مظاهر الرقي العلمي والفني والاجتماعي في الحضر».

ثم يقول الأميري: «أما في فهمي الخاص فالحضارة هي تحقيق غرض الوجود

البشـــري في إعمار الأرض ومن نواميس الله بأسمى شـــكل تتجلى فيه إنســـانية "الإنسان الخليفية"، والدين هو الدستور العام للوجود الإنساني»[1].

وبالمناسبة يقول الكثيرون عن حضارتنا إنها حضارة عربية، وإنني لا أوافق على ذلك، لأن الحضـــارة العربية لا قيمة لها إذا لم تقترن بالإســـلام، والعلاقة التي بين العروبة والإسلام كالعلاقة التي بين القشرة واللب.

نعم.. إن العرب أعزهم الله بالإســلام، وجوهر الإســلام هو هذا القرآن الذي نزل بلسان عربي مبين ، فالإسلام هو القرآن ، والقرآن هو الإسلام .

والقرآن لم ينـــزل للعرب وحدهم، بدليل أن محتواه من الأحكام و القيم موجه إلى الناس كافة، وهو لم يهمل مبدأ الإنســـانية التي تلتقي تحتها كل الأجناس وكل الألوان، بجانب تركيزه على القيم الأخلاقية، وبها أسقط التفاخر بالأنساب والمناصب.

وهذا يعني أن صـهيب الرومي أفضـل من أبي لهب القرشـي، وبلال أفضـل من أبي جهل القرشي، والسبب هو الإسلام .

أما في الجاهلية فلم يكن الأمر كذلك، بل كان فلان من النـــــاس يكرم لأنه من القبيلة الفلانية، وفلان يهان ويهضم حقه لأنه من القبيلة الفلانيـــة، وقد ورد في كتب الأدب قول الشاعر :

لو كنـت من مـازن لم تســـتبح إبلي بنوا اللقيطة من ذهل بن شـيبانا

ويقول آخر:

(1) راجع الإسلام وأزمة الحضارة للمؤلف .

ونشـــرب إن وردنا المـاء صـــفواً ويشـــرب غيرنا كـدراً و طينـا

أما في الإســلام فإننا نجد أن الرســول ﷺ يقول لرجل قد دخل عليه مرة وقد أخـذتـه الهيبـة: «**هَوِّنْ عَلَيْـكَ، فَـإِنِّي لَسْـــتُ بِمَلِـكٍ، إِنَّمَـا أَنَا ابْنُ امْرَأَةٍ تَأْكُـلُ الْقَدِيدَ**»[1].

ويجد الأعرابيُّ عمرَ رضـــي الله عنه، وهو أمير المؤمنين، قد نام تحت شـــجرة، واتخذ من التراب وسادة له، فيسأل الأعرابي: أهذا هو أمير المؤمنين؟

فيقال له نعم، فيقول مخاطباً إياه: حكمت فعدلت، فسلمت، فنمت يا عمر.

إذن هيبة الرسول ﷺ ليست في أنه قرشي النسب، وهيبة عمر ليست في أنه أمير المؤمنين ، بل لأنهما وعاءان لمكارم الأخلاق التي لا يمكن أن يظلم أحد أحداً في ظلها.

من أجل ذلك فإن ســياســياً بارزاً مثل شــارل ديجول يقول: «إن مجتمعاتنا الأوروبية فقدت شـيئاً ثميناً جداً تحت وطأة تقدمها الضـخم، ألا وهو الإنسـانية، وأعني بها القيم الروحية البشرية العليا».

ومن المعلوم أن ديجول كـان يميل إلى الاقتراب من العـالم العربي والإســـلامي كثيراً، وعندما ســـئل عن الســـر قال: «أعتقد أن اتصـــالنا بالمجتمعات العربية والإســـلامية التي حافظت على تلك الروح الإنســـانية التي فقدناها ســـينقذنا من مغبات حضارتنا».

أقول ومـا أحوج العـالم الغربي إلى زعيم أوروبي مثـل ديجول ليتكلم بالعـدل والإنصـاف في هذا اليوم الذي تكالبت الأمم على العرب والمسـلمين ، ويتهمونهم

(1) أخرجه ابن ماجه.

بكذا وكذا وهم ليسوا كذلك.

وإننا في حاجة إلى اعترف مثل اعتراف الرئيس الأمريكي الأسبق نيكسون عندما قال: إننا نجد أنفسنا أثرياء في البضائع ، ولكن ممزقين في الروح ، ونصل بدقة إلى القمر ، وأما على الأرض فنتخبط في متاهات[1] .

الإسلام يدعو إلى العلم:

رأينا أيضاً أن الإسلام دعا إلى إعمال الفكر والعقل، وقال: إن الحكمة ضالة المؤمن ، لذلك فإن العلماء في صدر الإسلام لم يجدوا باباً إلا طرقوه، ولا فناً إلا وضعوا قواعده وأسسه، وصارت كتبهم فيما بعد حقولاً للغرب التي انتبهت من غفلتها بعد أن نامت الشرق .

يقول الدكتور عباس محجوب: عبثاً نسب علماء الغرب أصول المنهج العلمي إلى اليونان، مع أن الإسلام وضع إطاراً علمياً متكاملاً مبنياً على أساس: طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة.

وانعكست آثار هذا العلم في بحوث علماء المسلمين أمثال الحسن بن الهيثم الذي تنسب طريقته العلمية في فلسفة العلم إلى (بيكون)، والنظرية الجسيمية للضوء في الفيزياء إلى (نيوتن)؛

وجابر بن حيان صاحب النظرية الجزئية في الكيمياء والتي تنسب إلى (دالتون)؛

والخازني صاحب الفكرة الجاذبية المنسوبة إلى (نيوتن)؛

وابن يونس صاحب البندول المنسوبة إلى (جاليلو)؛

والبيروني صاحب مركزية الشمس في الفلك والمنسوبة إلى (كوبرنيكوس)؛

(1) راجع: الإسلام وأزمة الحضارة، لعمر بهاء الدين الأميري.

وثابت بن قرة صاحب نظرية التفاضل والتكامل في الرياضيات والمنسوبة إلى (نيوتن ليتنتز)؛

وابن النفيس صاحب الدورة الدموية في الطب والمنسوبة إلى (هارفي)؛

وابن القيم صاحب التولد الكلي في الحيوان والمنسوبة إلى (دارون)؛

وابن خردازبه مكتشف كروية الأرض المنسوبة إلى (ماجلان)،

والغزالي مكتشف الاستجابات المحفوظة في علم النفس والمنسوبة إلى (بافلوف)[1].

إذن كان سبب تقدم المسلمين أن وظفوا العلم في سبيل إقامة هذه الحضارة الممتدة من الشرق إلى الغرب، ومن الشمال إلى الجنوب.

وهذا هو رجاء الله جارودي الذي بدأ حياته ملحداً ثم اعتنق الإسلام باقتناع يؤكد أن حضارة الإسلام هي التي تصلح لإرث الأرض، والسبب أنها توطد عقيدة التوحيد، وتوفق بين الإيمان والعلم، ولا تقيم حاجزاً ولا وسيطاً بين العبد وربه، وتحفظ كرامة الإنسان، وما يحققها من العدل والحرية والشورى[2].

ويقول الشيخ طنطاوي جوهري: «إنني أدعو جميع أمم الإسلام، في مشارق الأرض ومغاربها، أن يمعنوا النظر في قوله تعالى: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ (الفتح:28)، وفي قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ (يونس:101).. وكيف يظهره إذا نحن قرأنا الأحكام الشرعية ولم نمعن في

(1) راجع: تقديم د.عباس محجوب لكتاب أساليب التربية والتعليم في الإسلام للدكتور الشيخ الأمين محمد عوض الله.
(2) راجع: الإسلام وأزمة الحضارة، لعمر بهاء الدين.

العجائب الكونية؟ ومن المعلوم أن الديانات كلها لا تتعرض لعلوم الكائنات، في حين أن الإسلام يدعو إليها ويأمر بها».

ثم يقول: «والأحكام الشرعية التي تدرس في بلاد الإسلام آياتها محدودات، أما آيات العلوم الكونية فإنها تبلغ نحو 750 آية، كلها في عجائب هذا الكون ومنافعه وغرائبه[1].

والقرآن هو الكتاب السماوي الوحيد الذي لا تتعارض آياته مع ما أقره الحديث، كما يقول الفرنسي المسلم "موريس بوكاي"[2].

إذن الدين ليس صلاة فقط تؤدى في المساجد، بل صلاة وإعمال فكر في ملكوت الله، وابتكارات في حقول العلم والمعرفة ويتجلى هذا في قوله تعالى: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (الفاتحة:1).

ثم إن الإسلام دين الجماعة، ولقد دعا إلى الاتحاد والتعاون ونبذ الخلاف والاندماج والتكامل، وجعل القرآن العظيم هو محور التلاقي، وصلة الربط بين الجنسيات المتعددة والأهواء المختلفة، قال الله تعالى:﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ﴾ (آل عمران:103).. وقال أيضاً: ﴿ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ﴾ (المائدة:2).

وقال الرسولﷺ:«...**مَنْ فَارَقَ الْجَمَاعَةَ قِيدَ شِبْرٍ فَقَدْ خَلَعَ رِبْقَةَ الإِسْلامِ مِنْ عُنُقِهِ إلا أَنْ يَرْجِعَ** »[3].

(1) راجع: الجواهر في تفسير القرآن الكريم حول سورة الفاتحة.
(2) راجع: الإسلام كبديل للدكتور مراد هوفمان، نقلاً عن كتابه: الإنجيل والقرآن والعلوم الطبيعية.
(3) أخرجه الترمذي، وقَالَ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ غَرِيبٌ.

في الإسلام القدوة الحسنة:

من أسباب تقدم المسلمين الأوائل أيضاً أنهم كانوا قدوة حسنة لمن خلفهم، فعندما فضلوا شظف العيش على التنعم جعلهم ذلك موضع احترام العالم الذي جرى وراء الرفاهية، وقد فعلوا ذلك اقتداءً بنبيهم.

يقول الإمام أحمد بن حنبل، رحمه الله: «إذا أراد أحدكم أن يحفظ أحاديث الرسول ﷺ فليعمل بها».

ثم يقول: وإنني قرأت ذات يوم أن الرسول ﷺ احتجم ثم أعطى للحجام ديناراً، فذهبت إلى السوق واحتجمت وأعطيته ديناراً عملاً بالحديث الشريف».

ورؤي الإمام الجنيد، رحمه الله، في المقام فقيل له: ما فعل الله بك يا أبا عبد الله؟ قال: «لقد ذهبت تلك العبارات، واختفت تلك الإشارات، ولم ينفعنا إلا ركيعات كنا نركعها وقت السحر».

إذن لم ينل المسلمون الأوائل ما نالوا إلا بالجد والسهر، لعلمهم أن الجنة حُفَّت بالمكاره، وحُفّت النار بالشهوات، فهل انتبه المسلمون اليوم لهذا؟

نعم.. ظلت الأمة العربية والإسلامية برهة من الزمن تحافظ على هذه الركائز والقيم والسلوكات، واستطاعت أن تفرض هيبتها على الدول، وكم كانت الدول الكبرى آنذاك تحسب لها الحساب، وتعلم أنها أمة العلم والعمل، وأمة الجد والتضحية والفداء.

يروى أن هرقل عظيم الروم أرسل إلى أحد حكامه في القرن السابع رسولاً يعنّفه لعجزه عن صد جيوش المسلمين، فرد عليه الحاكم قائلاً: إنهم أقل منا عدداً، ولكن

عربياً واحداً يعادل مئة من رجالنا، ذلك أنهم لا يطمعون في شيء من متاع الدنيا، ويكتفون بالكساء البسيط والغذاء البسيط.. هذا في الوقت الذي يرغبون في الاستشهاد لأنه أفضل طريق إلى الجنة، في حين نتعلق نحن بأهداب الحياة ، ونخشى الموت ياسيدي الإمبراطور[1].

وبالمقابل تعال وانظر لترى اليوم الأمة الإسلامية كيف تعيش في أبشع صورة من التخاذل والضعف والهوان، حيث نراهم يتعاطون الموبقات ولا يتغير لها وجه أحد منهم، وتستباح بلادهم وأعراضهم فلا نجد فيهم صاحب نخوة أو غيرة أو مروءة، وما أجمل قول الشاعر في أمثالهم .

مررت على المروءة وهي تبكي فقلت علام تنتحب الفتاة

فقالت كيف لا أبكي وأهلي جميعاً دون خلق الله ماتوا

إننا اليوم ينطبق علينا حديث الرسول ﷺ: «**يُوشِكُ الأُمَمُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ كَمَا تَدَاعَى الأَكَلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا**، فَقَالَ قَائِلٌ: وَمِنْ قِلَّةٍ نَحْنُ يَوْمَئِذٍ ؟قَالَ: **بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ، وَلَيَنْزَعَنَّ اللَّهُ مِنْ صُدُورِ عَدُوِّكُمُ الْمَهَابَةَ مِنْكُمْ، وَلَيَقْذِفَنَّ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهْنَ** ، فَقَالَ قَائِلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا الْوَهْنُ؟ قَالَ: **حُبُّ الدُّنْيَا وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ**»[2].

كيف ننهض ثانية؟

بدأ الإسلام ضعيفاً ثم اكتسب قوة، ولم يكن يقوى لولا أن المسلمين أخذوا

(1) راجع تاريخ التربية للدكتور شفيق منير سليمان.
(2) أخرجه أبوداود وأحمد.

بأسباب القوة والنصر.

واليوم ما نرى من ضعف وتشتت وهوان ليس الإسلام سبباً فيه، بل نحن المسلمين ، وإلا فإن الله سبحانه وتعالى ضمن لنا العزة والنصر كما ضمن لأسلافنا حيث قال: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (المنافقون:8)، وقال أيضاً: ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الروم:47).

لكن يا ترى هل نحن اليوم أهلٌ للنصرة أم لا ؟

إذا قلنا لا فإن المطلوب أن نغير موقفنا ونعود إلى رحاب التقوى ، لأن الله يقول: ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾.

ولن نكون مؤمنين ما دمنا نعظم غير الله أكثر من الله، ونحب الدنيا أكثر من الآخرة، وندعي الإسلام ولسنا بمسلمين.

إذن لا ينتظر أن تنفتح أبواب السماء ما لم تستجب الأرض لنداء الباري، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ (الرعد:11).

ولقد أحسن الداعية الإسلامي العلامة أبو الحسن الندوي، رحمه الله، عندما قال: «إن رسالة الإسلام واضحة، والعالم الإسلامي اليوم لا ينهض إلا بالرسالة الأولى التي حملها المسلمون في فتوحهم الأولى».

إذن لابد من الاستعداد الروحي، والاستعداد الصناعي والحربي، والتنظيم العلمي الجديد ثم يقول: «وبرغم كل ما أصيب به المسلمون من علة وضعف فإنهم الأمة الوحيدة على وجه الأرض التي تنافس الأمم الغربية في قيادة العالم، والتي يعزم عليها دينها أن تراقب سير العالم وتحاسب الأمم على أخلاقها وأعمالها، وأن تقودها إلى

الفضيلة والتقوى، وإلى السعادة والفلاح»[1] .

من هنا أقول: علينا نحن المسلمين أن نخطو عدة خطوات إذا أردنا أن تعود إلينا العزة والكرامة.

أولاً: يجب أن لا يداخلنا الشك في نصرة الله لنا متى تمسكنا بالدين من ألفه إلى يائه، ذلك أن الشك يخرجنا من دائرة الإيمان، والله تعالى يقول: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾ (الحجرات:15).

ثانياً: يجب أن نعد للنصر بالمال والعتاد، إذ لا يكفي المال وحده، ولا السلاح وحده.

والمال يجب أن يوجه حيث الاستثمار الأفضل، والسلاح يجب أن يكون من جنس سلاح العصر، لا أن نربي خيولاً ونحمل خناجر، ونظن أنهما وسائل الحرب، نظراً لأنهما كانا كذلك في صدر الإسلام.

ثالثاً: يجب أن نتعاون فيما بيننا نحن المسلمين، وننسى الخلافات حتى تتلاشى الحدود الجغرافية، والفوارق الطبقية.

والحدود الجغرافية ما وجدت إلا لتكون بوابات تحجز بعضنا عن بعض، فلا تواصل ولا تراحم ولا تناصر، ولو كانت الحدود الجغرافية قائمة قديماً كما هي اليوم لما هب المعتصم لنجدة المرأة التي استغاثت به قائلة: وامعتصماه.

ثم إن التعاون والتناصر يجب أن يتجلى في أوقات السلم أولاً وإلا لن تجد له أثراً في أوقات الحرب.

(1) راجع: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، للعلامة أبي الحسن الندوي، رحمه الله.

ومما يروى عن تناصر الأجانب بعضهم لبعض ما يرويه الأمير شكيب أرسلان حيث يقول: حدثني رجل ثقة أنه يعرف إنجليزياً ذا منصب في الشرق كان يأمر خادمه أن يشتري له الحوائج اللازمة لبيته يومياً من دكان رجل إنجليزي في البلد الذي هم فيها.

فجاءه الخادم مرة بجدول حساب وفر عليه به 20 جنيهاً في الشهر، فسأله الإنجليزي كيف وفرت هذا ؟ قال الخادم: تركنا دكان الإنجليزي الذي كنا نشتري منه، وصرنا نشتري من دكان أحد الأهالي من العرب.

فقال له الإنجليزي: ارجع إلى دكان الإنجليزي الذي كنا نشتري منه.

فقال الخادم: إنه يبيع بأغلى.

قال الإنجليزي: ولو كان ذلك.

رابعاً: يجب أن نكافح الجهل ونقبل على تعلم العلوم التي بها انتصر الغرب علينا، رغم أن الكنيسة وقفت تؤيد الجهل ضد العلم.

أما نحن المسلمين فقد دعانا ديننا منذ بزوغ فجره إلى القراءة وطلب العلم، قال تعالى: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ (العلق:1-5).

وقال: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟ ﴾ (فاطر:28).

نعم.. ولن نستطيع أن نحقق أي تقدم علمي إذا وقفنا بين جاحد وجامد، لذا فإن المطلوب أن نحرر الفكر ولا نعقّد الحياة ونحن نعلم أن الرسول ﷺ قال ذات

مرة: « **أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِأَمْرِ دُنْيَاكُمْ**»[1].

ثم إن تراثنا الإسلامي مليء بالنصوص التي تدل على أن الإسلام يقبل التطور، فحديث مثل: « **تَدَاوَوْا عِبَادَ اللَّهِ، فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَمْ يُنَزِّلْ دَاءً إِلا أَنْزَلَ مَعَهُ شِفَاءً إِلاّ الْمَوْتَ وَالْهَرَمَ**»[2]، ألا يعني هذا الحديث وغيره أن الدين مرن في تعامله مع الحياة[3].

خامساً: يجب أن نستعيد الثقة بأنفسنا، وإنني أسمع الكثيرين يقولون: لقد سبقنا الغرب بعشرات من السنين، ولا جدوى من محاولة النهوض.

أعتقد أن هذا هو اليأس بعينه، وفي ظله لا يمكن أن تكون نهضة أو حياة.

لذلك فإننا يجب علينا أن نستلهم من أسلافنا روح العمل ، ونردد قول ابن الوردي :

لا تقل قد ذهبت أربابه كل من سار على الدرب وصل

والثقة بالنفس لا أعني بها الاتكال، بل التوكل على الله أولاً، ثم الاعتداد بالنفس وهو من قبيل الأخذ بالأسباب.

ولكي نستعيد هذه الثقة بأنفسنا يجب أن نبدّل منظارنا الأسود، ولا ننظر إلى العالم نظرة احتقار، ولا نختار الدرب الأصعب، وصدق الشيخ القرضاوي إذ يقول: الإسلام الذي ننشده هو الإسلام الأول، إسلام القرآن والسنة، إسلام التيسير لا التعسير، والتبشير لا التنفير، والرفق لا العنف، والتعارف لا التناحر، والتسامح لا

(1) أخرجه مسلم.
(2) أخرجه أحمد.
(3) راجع من أجل صحوة راشدة للدكتور القرضاوي.

التعصـــب، والجـــوهر لا الشكل ، والعمل لا الجـــدل ، والعطاء لا الادعاء ، والاجتهاد لا التبلد، والتجديد لا الجمود، والانضـباط لا التسـيّب، والوسـطية لا الغلو ولا التقصير.

سادساً: يـجب أن نستعد للفداء، إذ لا يمكن أن نسـجل أي انتصـار ما لم نقدم تضحيات مادية وبشرية.

وإن الذي لا يضحي بالنفس والنفيس ومع ذلك يرجو السلامة مثله مثل الثور الذي ضـحى بالثورين الأبيض والأحمر ظناً منه أنه سـوف ينفرد بالمرعى ويبسـط سـلطانه على الحياة.. ولكن عندما رأى الذئاب التي هاجمت الثور الأبيض والأحمر هاجمته في النهاية قال: أكلت يوم أكل الثور الأبيض.

ويعني بذلك أنه كان من الواجب أن يخاطر بنفسه ويدافع عن الثور الأبيض منذ اللحظة الأولى، وقبل فـوات الأوان، لعله إذا أنقذه ينقذ نفســـــه أيضاً، ولكنه لم يفعل تـــهاوناً منه فدفع الثمن غالياً، وإننا ســوف ندفع الثمن غالياً.. أليس كذلك؟

الخاتمة

استعرضنا في هذا الموجز كيف بدأت النبوة الأولى وكيف انتهت إلى النبوة الخاتمة، والنبوة الخاتمة كيف انطلقت قوية من قلب الجزيرة العربية إلى العالم كافة لتحمل إلى البشرية وسطية الإسلام.

فالوسطية الأولى كانت عندما اختار الله الكعبة قبلة العالم إلى الأبد.

والوسطية الثانية عندما اختار الله الإسلام ديناً خاتماً للأديان السماوية.

والوسطية الثالثة :اختيار الله محمداً ﷺ من العرب، ونبياً خاتماً للأنبياء والمرسلين.

إذن تبقى حمل أمانة الرسالة الخاتمة مسؤولية العرب بالدرجة الأولى، لأن الله اختارهم أهلاً لحمل هذه الرسالة.

ولكي يبقى الإسلام ميثاق الشرف لأبناء الجزيرة العربية الذين انتهت إليهم الخلافة الإسلامية، يجب عليهم أن يكونوا أوفياء لهذا الميثاق، لأن فيه عزتهم وكرامتهم، وهم المعنيون بالحديث القائل: «**إنَّ هذَا الأَمْرَ في قُرَيْشٍ، لا يُعَادِيهِمْ أَحَدٌ إلا كَبَّهُ اللهُ في النَّارِ عَلَى وَجْهِهِ، مَا أَقَامُوا الدِّينَ**»[1].

إذن ليس من قبيل الصدفة أن نرى أنظار العالم تتجه إلى هذه البقعة من الأرض، بل لعلمهم بأهمية الدور الذي سوف تلعبه شبه الجزيرة العربية في إدارة العالم.. إنها موطن أقدس مقدسات العالم، ومهبط أفضل الخلق على الإطلاق، وفيها تكمن أغنى مناطق العالم من حيث الثروة البترولية التي من أجلها تكالبت علينا الأمم اليوم.

فلنكن إذن كما أراد الله منا، وما علينا من تقلبات الزمن، فالله متم نوره ولو كره الكافرون.

(1) أخرجه البخاري.